الزجل

وهو من فنون الشعر المستحدثة في الأندلس، والتي ظهرت بعد الموشحات في وقتٍ متأخر ويرجح ابن خلدون ذلك بقوله : " ولمَّا شاعَ فنُّ التوشيحِ في أهل الاندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريعِ أجزائه، نسجت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً واستحدثوا فناً سموه الزجل".

والزجل شعر منظوم بالعامية يتلاءم مع رغبات العامة ومن لايجيدون العربية من أبناء البلاد وملوك البربر. وآية ذلك المعتمد بن عباد " كان قد شجعَ بعض الشعراء لكي يمدحوا يوسف بن تاشفين فلما انتهوا من الانشاد قال المعتمد لابن تاشفين: أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز، ولما انصرف ابن تاشفين إلى حاضرة ملكه بشمال افريقيا، كتب له المعتمد رسالة تضمنت بيتين من نونية ابن زيدون هما:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سُوداً وكانت بكم بيضاً لياليا

فلما قرئ البيتان على ابن تاشفين قال للقارئ : يطلب مني جواري سوداً وبيضاً. فأجابه القارئ لا يا مولانا، ما أرادَ الله إلا أنَّ ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن ليالي السرورِ بيض، فعادَ نهاره ببعده ليلاً لآن ليالي الحزنِ ليالٍ سود، فقال : والله جيد، اكتب له في جوابه: إن دموعنا تجري عليه، ورؤوسنا توجعنا من بعده".

ويدل هذا الكلام الطريف على انقسام اللغة العربية بين لغة خاصة وهي لغة النخبة من المثقفين ولهجة دارجة سادت على ألسنة العامة – في الحواضر أولاً ثم انتقلت إلى البادية في عهدٍ متأخر – ويرى إحسان عباس أن تكون الحاجة الشعبية إلى الغناء، هي السبب المباشر في نشأة الموشحات فضلاً عن التأثر بالاغنيات الشعبية الأعجمية الشائعة يومئذٍ في الأندلس.

وقد تطور الزجل ومرَّ بخمسةِ أدوار: ففي الدور الأول ارتبطت نشأة الزجل بالأغاني الشعبية العامية التي لا تنسب إلى مؤلف بعينه، وإنما شاعت على ألسنة الناس منذ أواخر القرن الثالث. كانوا يتغنون بها فرادى وجماعات، وفي الدور الثاني ظهرت في القرن الخامس جماعة من الشعراء اصطنعت الزجل، سماهم ابن قزمان في مقدمة ديوانه "المتقدمين" واتهمهم بالتقصير في زجلهم إذ يقول: "وهم لا يعرفون الطريق، ويذرون القبلة ويمشون في التغريب والتشريق، يأتون بمعانٍ باردة وأغراض شاردة، وألفاظ شياطينها غير ماردة، وبالإعراب وهو أقبح ما يكون في الزجل"، ولكنه يستثني واحداً من هؤلاء الزجالين هو الشيخ أخطل بن نمارة. وذلك لسلاسة طبعه، وإشراق معانيه، وتصرفه بأقسام الزجل وقوافيه. وفي الدور الثالث يلقانا عدد من زجالي القرن السادس الهجري ذكرهم ابن خلدون في مقدمته: على رأسهم ابن قزمان الذي يعد إمام الزجالين على الإطلاق الذي شهد عصر دولة المرابطين، وقد أعطى الزجل شكله النهائي.

وفي الدور الرابع يطلُّ علينا أحمد بن الحاج المعروف بإسم مَدْغليس، فنراه يجمع في أزجاله بين القصائد الزجلية والأزجال الحرة المطلقة من إسار الشكل التقليدي، وقد ذكره المقري في

كتابه نفح الطيب بقوله: " كان مَدْغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال، خليفة ابن قزمان في زمانه، وفيه يقول أهل الأندلس: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام، بالنظر الى الانطباع والصناعة، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت إلى اللفظ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان، ولكنه لمَّا رأى نفسه في الزجل اقتصر عليه"

ويلقانا في هذا الدور أيضاً زجّالون آخرون، منهم: ابن الزيات، وابن جُحدرالإشبيلي ، وأبوعلي الحسن بن أبي نصر الدباغ وغيرهم، ولكنهم من كثرتهم لم يرزقوا موهبة فنية كابن قزمان أو مدغليس، ولعل ذلك يرجع إلى "أن بوادر مأساة الأندلس الكبرى كانت قد بدأت تلوح بالأفق، بتساقط المدن الأندلسية في أيدي الإسبان، فشغل الناس أكثر بهذا الخطر الداهم عن كل شيء آخر".

ومع نهاية هذا الدور في القرن السابع الهجري الذي اشتدت فيه مأساة الأندلس تزدهر الموشحة الصوفية على أيدي ابن عربي، الذي حمله معه إلى المشرق العربي، ولا شك في أن التصوف يولد في رحم المآسي والنكبات التي تصيب الأمة، فقد أخذت جماعات الصوفية تمشي في الأسواق وتتغنى بأزجال الششتري وغيره من شعراء الصوفية.

أما الدور الخامس والأخير في تطور الزجل الأندلسي فكان في المائة الثامنة ومن أبرز الزجالين الذين ذكرهم ابن خلدون في مقدمته: الوزير لسان الدين بن الخطيب، وشهد له بأنه إمام النظم والنثر، وأورد من محاسن أزجاله ثلاث مقطوعات قصيرة. ثم يذكر معاصره محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وكان إماماً في هذه الطريقة الزجلية لهذا العهد، ويذكر أيضاً أبا عبدالله اللوشي ويورد له قصيدة زجلية طويلة.

وخلاصة القول، فقد تطور الزجل في الأندلس ومرَّ في خمسة أدوار متميزة هي: دور الأغنية الشعبية، فدور الزجالين قبل ابن قزمان، فدور زجّالي القرن السادس وفي مقدمتهم ابن قزمان، فدور زجالي القرن السابع وفي مقدمتهم مدغليس، فدور زجالي القرن الثامن وفي مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، ولا شك في أن الزجل وُلِدَ في أحضان الأغنية الشعبية وأن الصلة بينهما ظلت تتراوح بين مدٍّ وجزر.

البناء الفني للزجل:

تعد قصيدة الزجل الصورة الأولى لهذا الفن، وهي تتفق في بنائها الفني مع القصيدة التقليدية سواء في الوزن أو القافية أو التصريع، ولا تختلف عنها في شيء غير اللحن والإعراب واللغة. وتحدث صفي الدين الحلي في كتابه (العاطل الحالي والمرخص الغالي) عن ذلك بقوله: "وأول ما نظموا الأزجال جعلوها قصائدَ مقصَّدة، وأبياتاً مجرَّدة في أبحر العرب، بقافية واحدة كالعَريض، لا تُغايره بغير اللفظ، وسمّوها القصائد الزجلية" ، وذهبَ ابن خلدون إلى أن الزجالين نظموا بلغتهم العامية في سائر البحور وسمّوه الشعر الزجلي، وتدور الأزجال حول الموضوعات المعروفة في الشعر التقليدي من مديح وغزل ورثاء وهجاء، ولا تخلو من الأساليب البيانية كالتشبيه والمجاز.

وكذلك تتفق الأزجال مع الموشحات في الأجزاء الرئيسة التي تبنى عليها من مطلع وأغصان وأسماط وأقفال وأدوار وخرجة، وإذا كانت الخرجة في الموشح عامية أو أعجمية وتشير إلى ختام الموشح فإنّ الزجل عامّي كله وقد تخالطه ألفاظ أعجمية، وتأتي حركة الختام بحكمة يستمدها الزُّجال من الكلام الفصيح مثل:

لا نسيت إذا زارني حبّي

وانجلى همي وزالَ كربي

قلت له وقتا أخذ قلبي

قل متى تجين: قال غداً "وغداً للناظرين قريب"

وإذا كان الزجل في المديح أو الغزل ظهرت خاتمته بأن يعلن الزجال أن زجله قد انتهى وجاء مليحا. وتعرف الخاتمة في الرثاء من طبيعة الدعاء الختامي.

فنون الزّجل:

تعددت فنون الزجل الاندلسي، مثله مثل القصيدة المعرّبة، فقد اقتصرت بدايات الزجل على الغزل واللهو والمجون، ثم أخذ يتناول فنون الشعر الأخرى من مديح وهجاء ورثاء وفخر وزهد ووصف. وقد راج سوق الزجل إبان حكم المرابطين الذين لم يفهموا العربية الفصيحة ، بل اقتصر فهمهم على الأزجال لسهولتها وإغراقها في العامية.

انموذج من الزجل في فن الغزل:

من الأزجال الغزلية ، زجل ابن قُزمان يقول فيه:

هجرني حبيبي هجرْ وأنا لَس لي بعد صبرْ

لَس حبيبي إلّا وَدود قطعْ لي قميص من صُدود

وخاطَ بنقض العهود وحبَّبْ إليَّ السهرْ

كان الكُستُبان من شجون والإبَر من سِهام الجفونْ

وكانَ المِقَصُّ المنونْ والخَيطَ القضا والقدَرْ.